التضميـن وعلاقتـه بالتنـاص الاقتباسـي

أ. آمنة محمد الطويل
قسم اللغة العربية – كلية التربية – الزاوية
جامعة السابع من إبريل

مقدمـــة:

مولعون نحن العرب بتقليد الغرب مبهرون بكل ما يأتي من خلف البحار حتى وإن كان عندنا مثله لأن المغلوب مولع بتقليد الغالب على حد قول ابن خلدون ولهذا بتخبط النقد العربي الحديث والأدب بصفة عامة لأنه يحاول أن يقلد الأدب الغربي وكأننا نعاني إفلاساً أدبياً فكرياً وضحالة في التراث الأدبي مع إن جذور أدبنا العربي ضاربة في أعماق التاريخ فعمر الشعر العربي أكثر من أربعمائة عام قبل ظهور الإسلام أو لعله أبعد من ذلك بكثير وتأكيداً على قدم تراثنا الأدبي وأسبقية البلاغة والنقد العربي في الوصول إلى معاني ومضامين كثيرة وصل إليها النقد الغربي في زمن متأخر وأخذها العرب

عنهم وكأنها اختراع جديد لا عهد لنا به كغيره من المخترعات الحديثة التي أبهرتنا وجعلتنا نجثو على ركبنا مصفقين بإعجاب شديد ولو أمعنا النظر في تراثنا وحضارتنا الزاهرة أبان عصور ظلامهم لأدركنا بأننا مخطئون وبأنهم يحسنون السرقة والتعدي على تاريخ الآخرين وأملاكهم.

من هنا أنصب اهتمامي على دراسة مصطلح نقدي ظهر مؤخراً في الساحة النقدية العربية وهو مصطلح التناص الذي وفد علينا من النقد الغربي فأثار ضجة كبيرة عند نقادنا العرب وكأنه جديد علينا لا عهد لنا به مع أنه وجد بمضمونه في مصطلحات أخرى في البلاغة العربية حملت نفس المعنى ومنها الاقتباس والسرقة والمعارضة والتضمين فكل هذه المصطلحات تحمل جزءاً من مضمون التناص أو كل مضمونه والقاسم المشرك بينها جميعاً هو فكرة انتقال المعنى أو اللفظ من عمل أدبي إلى آخر مع اختلاف في المقصد والغاية.

وفي هذا البحث سأحاول الربط بين هذا المصطلح ومصطلح قريب منه في معناه وهو مصطلح (التضمين) الذي ورد ذكره في البلاغة العربية ضمن موضوعات البديع.

وفي ظنيّي أن هذا المصطلح يحمل مضمون التناص بأنواعه المختلفة التي ذكرها النقاد لاسيما (التناص الاقتباسي) فمضمونهما يكاد يكون واحداً ومصادرهما تتشابه في أغلبها ومن خلال هذا البحث سأحاول التعريف بكليهما لغة واصطلاحاً وذكر مصادرهما مع التدليل ببعض الأبيات الشعرية على كليهما.

وقد لفتت نظري من خلال هذا البحث أشياء كثيرة تؤكد عربية هذا المصطلح الذي حمل مضامين كثير من المصطلحات النقدية المعروفة منها السرقات والاقتباس والمعارضة والتضمين الذي عليه يدور هذا البحث ولو حاولنا اقتفاء أثر هذا المصطلح في كل هذه المصطلحات المعروفة لوجدنا أنه

موجود بمعناه ومضمونه في كل منها وإذا تتبعنا أصوله في أدبنا العربي القديم نجد أن الموازنة التي أقامها الآمدي بين أبي تمام والبحتري تعكس شكلاً من أشكال التناص وكذلك الوساطة بين المتنبي وخصومه عند الجرجاني.

هذا لو بحثنا في أدبنا العربي القديم ولو تركناه وجئنا إلى أدبنا العربي الحديث لوجدنا شعراء مشهورين كثر استخدموا كثيراً من أشكال التناص قبل أن يصل هذا المصطلح إلى النقد العربي المعاصر منهم السياب ونازك والبياتي ونزار قباني ومحمود درويش وقد استشهدت بأبيات لبعض هؤلاء الشعراء للتعريف بالتناص لاسيما (الاقتباسي) بأنواعه المختلفة والتي تلتقي مع التضمين بنوعيه الحسن والقبيح على حد رأي البلاغيين العرب القدامى في تقسيمهم للتضمين.

تعريف التضمين:

تعريفه لغة: جاء في اللسان[1] ضمّن الشيء أودعه إياه كما تودع الوعاء المتاع والميت القبر؛ ومثله جاء في أساس البلاغة[2]، وقال صاحب القاموس المحيط[3] والمضمن كمعظم من الشعر ما ضمنته بيتاً ومن البيت ما لا يتم معناه إلا بالذي يليه ومثله جاء في الصحاح[4]؛ ولعل من هذا المعنى الأخير اشتق معنى التضمين في البلاغة العربية.

تعريفه اصطلاحاً: عرفه ابن المعتز وقدامه وأبو هلال العسكري ضمن الأنواع التسعة والعشرين التي أوردوها في كتبهم وعرفه ابن رشيق بقوله :"فأما التضمين فهو قصدك إلى البيت من الشعر والقسيم فتأتي به في آخر شعرك أو في وسطه كالمتمثل"[5].

أما ابن الأثير فلم يعرفه بل قال :"إنه نوع فيه نظر بين حسن يكتسب به الكلام طلاوة وبين معيب عند قوم وهو عندهم معدود من عيوب الشعر"[6].

وبحثه ابن الأصبع المصري تحت عنوان حسن التضمين وعرفه بقوله[7]: هو أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من بيت أو من آية أو معنى مجرداً من كلام أو مثلاً سائداً[8] أو جملة مفيدة أو فقرة من حكمة وقد أورد على ذلك أمثلة وفي هامش كتابه لهذا التعريف أشار إلى أنه بحث في البيان والتبيين، تحت اسم الاقتباس والتضمين وعند ابن حجة في الخزانة تحت اسم الاقتباس وكذا الحال في نهاية الأرب للنويري.

أما القزويني في كتابه الإيضاح فقد عرفه بقوله :"وأما التضمين فهو أن يضمن الشعر شيئاً من شعر الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً عند البلغاء"[9].

وبحثه صاحب الجواهر ضمن ما يتصل بالسرقات الشعرية وعرفه بقوله: "هو أن يضمن الشاعر كلامه شعراً من شعر الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً لدى نقاد الشعر[10].

ومن خلال عرض لتلك التعريفات أميل إلى صياغة تعريف جامع إن جاز لي ذلك وهو القول بأن التضمين :"هو أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من بيت أو من آية أو معناً مجرداً من كلام أو مثلاً سائداً أو جملة مفيدة أو فقرة من حكمة مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً عند البلغاء.

وهذا التعريف يوضح المقصود من التضمين ويبعده عن كل التباس بغيره من المفاهيم الأخرى.

ومن الأشياء التي لفتت انتباهي أيضاً من خلال التعريفات هو عدّ التضمين مما يتصل بالسرقة وهذا من النقاط التي يلتقي بها التناص مع الاقتباس لأنه هو الآخر متصل بالسرقة إلى حد ما.

يقول الهاشمي: "تتصل بالسرقات الشعرية ثمانية أمور: الاقتباس، التضمين، العقد الحل، التلميح، الابتداء، والتخلص والانتهاء"[11].

ومن خلال التعريف الجامع للتضمين يمكن تعرّف العلاقة بين كلا المصطلحين لأن التناص في المصطلح البلاغي النقدي الحديث هو "التواجد اللغوي لنص في نص تختلف درجاته وأهدافه ومدى القصيدة في إيراده من نص لآخر بحيث يكون الاستشهاد المتين بين مزدوجتين أوضح مثال عليه لكنه يرد كثيراً على شكل اقتباسات وإحالات وأصداء من اللغات الثقافية مجهولة الاسم".

لكنه يختلف عن التضمين لأنه لا يحوي إشارة تدل عليه فهو عملية هضم وتمثل وإعادة[12] إخراج ولكن كلاهما يتجاوز حدود المكان والزمان فهما يمتصا نصاً آخر تسرب إليهما من عدة عصور وأزمنة مختلفة ويعتمد الكاتب في استخراجها على المتلقي وثقافته بالدرجة الأولى فيكون مشاركاً في العمل الإبداعي وهذا الامتصاص والتمثل لا يقلل من قيمة النص لأنه لا نص يولد من فراغ، ولا كلام ينشأ من الصمت فكل نص "اتكأ على نصوص أخرى لأن نصوصاً وقع تحت تأثيرها نص وهو في عملية الإنتاج فوجهته كما كان يفعل في تتبع أنواع السرقات"[13].

وفي رأيي الشخصي وهو اجتهاد فإن أقرب أنواع التناص للتضمين هو التناص[14] الاقتباسي بأنواعه المختلفة:

أنواع التضمين: قسمه ابن الأثير على قسمين

أوَّلاً- التضمين الحسن:

وهو الذي يكتسب به الكلام طلاوة وهو "أن يضمن الآيات والأخبار النبوية وهو يرد على وجهين أحدهما كلي والآخر تضمين جزئي"[15].

وهو نوعان:

أ- **التضمين الكلي:** وهو أن تذكر الآية أو الخبر بجملته ومثله ذكر الأبيات كما جاء في قول ابن العميد[16].

وصاحب كنـــت مغبوطـــاً بـــصحبته دهراً فغادرني فـــرد بـــلا ســـكن
"إن الكرام إذا مـــا أســـهلوا ذكـــروا من كان يألفهم في المنزل الخشن"

والبيت لأبي تمام وهو منصص نقل بكامله وضمن لخدمة النص.

ب- التضمين الجزئي:

عرفه ابن الأثير بقوله "هو أن تدرج بعض الآية والخبر في ضمن كلام فيكون جزءاً منه كالذي أوردته في حلّ الآيات والأخبار في الفصل العاشر من مقدمة الكتاب[17] وبالرجوع إلى الجزء الأول من المثل السائر يقول في تأليفه نثراً: "ومن ذلك ما ذكرته في تزكية إنسان مما رمى به وهو لم يرتكب ذنباً إلا نابت البراءة له مناب الشهود وجئ من أهلها بشهادة القميص المقدود"[18] وهذا مأخوذ من قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَاسْتَبَقَا البَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا البَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾[19].

ويقترب هذا النوع من التضمين من التناص الاقتباسي الكامل المحور ومن هذا قولهم[20] شعراً في قصيدة نثرية.

وإذا المؤودة سئلت رجال لهم سحنة الموت
عند اعتصام الظلام بصومعة الأفق
رمال تؤله شكل الدماء على قبة الوقت والشمس

وفي أول الأبيات إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا المَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾[21].

النوع الثاني: التضمين المعيب:

يقول[22] صاحب (التحبير) إن التضمين يكون من المحاسن والعيوب ولكنه لا يكون من العيوب إلا إذا وقع في النظم بالنظم والإيداع والاستعانة وإن وقعا في معاني النظم والنثر فلا يكونان إلا بالنظم دون النثر.

الضرب الأول:

أما ابن الأثير[23] فيرى أنّ ما ذهب إليه كثيرون هو أنّ المعيب ما يقع فيه الإسناد ويكون بين بيتين أحدهما مسنداً إلى الآخر كقول أمرؤ القيس[24]

فقلت لـــه لمـــا تمطـــى بـــصلبه وأردف أعجـــاز ونـــاء بكلكـــل
ألا أيها الليل الطويـــل ألا انجلـــي بصبح وما الأصباح منـــك بأمثـــل

وفي رأيه أن هذا لا عيب فيه وذلك لوروده في كتاب الله العزيز وليس من المعقول ولا الجائز أن يرد شيء في كتاب الله ويكون عيباً ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ المُصَدِّقِينَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾.

فكل آية معناها يأتي ضمن آية أخرى وهذا جميل رائع لا عيب فيه.

والضرب الثاني: من التضمين المعيب هو: أن يضمن الشاعر شعره والناثر نثره كلام آخر لغيره قصد الاستعانة على تأكيد المعنى المقصود ولو لم يذكر ذلك التضمين لكان المعنى تاماً ومن ذلك قول أبي نواس[25] في الخمريات:

فقلت هل لك في الصهباء تأخـــذها من كف ذات.... فـــالعيش مقتبـــل
حيرية كـــشعاع الـــشمس صـــافية يحيط بالكأس مـــن لألائهـــا شـــعل
فقال هات واسمعنا على طـــرب (ودع هريرة إن الركـــب مرتحـــل)

وكما ترى فعجز البيت الأخير هو من قصيدة الأعشى[26] التي يقول فيها:

ودع هريرة أن الركـــب مرتحـــل فهل تطيـــق وداعـــاً أيهـــا الرجـــل

تعريف التناص:

تعريفه لغة:

جاء في لسان العرب "نصّ المتاع نصاً جعل بعضه على بعض"[27] ومنها أيضاً "ناص مناصة غريمة : ناقشه، وتناص القوم ازدحموا"[28].

ونظراً لما تدل عليه المادة من الاحتكاك والحوار ولعلاقتها النطقية والاشتقاقية بكلمة "النص" اختارها النقاد العرب بحدس لغوي رفيع يؤكد قدرة العقل العربي على التفاعل مع الألفاظ والمصطلحات الحديثة ومجاراتها من خلال لغة قوية تستوعب كل المضامين الجديدة المستحدثة أو القديمة المطورة وهي خاصية لن تجدها في كثير من اللغات العالمية.

وبالتمعن في هذا التعريف اللغوي يمكن القول إن هناك علاقة وطيدة بين الاشتقاق اللغوي والمعنى الاصطلاحي لهذا المصطلح الذي سنتعرف على معناه لاحقاً.

التناص في الاصطلاح:

هو مصطلح نقدي جديد ظهر في النقد العربي في زمن متأخر من القرن العشرين وكان يرد في بداية الأمر ضمن الحديث عن الدراسات اللسانية ويرجع أول ظهور له على يد الناقد الروسي (ميخائيل باختين) في كتابه (فلسفة اللغة) وكتاباته عن الروائي الروسي (دستويفيسكي) وقد استوى مفهوم التناص بشكل تام على يد تلميذة باختين (جوليا كرستيفا) سنة 1966-1967 وانتشر بعد ذلك في المحافل النقدية بسرعة كبيرة واستخدمته مدارس كثيرة تفكيكية وبنيوية وسيمولوجية وأسلوبية ثم جاء بعد كرستيفا الناقد الفرنسي (جرارجانيت) فأضاف لذلك أن حدد أصنافاً للتناص وبعد ذلك اتسع مفهوم التناص وأصبح بمثابة ظاهرة نقدية جديدة وجديرة بالدراسة والاهتمام وشاعت في الأدب

الغربي ولاحقا انتقل هذا الاهتمام بتقنية التناص إلى الأدب العربي ضمن الاحتكاك الثقافي والتفاعل بين الآداب العالمية.

ويعزو كثير من النقاد المعاصرين السبب في ظهور مصطلح التناص واستخدامه في الخطاب النقدي المعاصر إلى تأثير المدرسة البنيوية وما فرضته من قيود صارمة على دراسة النص الأدبي فالبنيوية ترفض كل أثر بشير إلى المبدع وآرائه ومن ثم فالنص الأدبي لا يحتاج إلى مؤثرات خارجية تُقحم فيه إقحاماً ومن هنا ربما كان التناص رد فعل حقيقي على قواعد البنيوية الصارمة فكل نص لا يمكن فهمه من دون الرجوع إلى عشرات النصوص التي سبقته.

أما النقاد العرب المعاصرون تناولوا التناص بالدراسة نظرياً وتطبيقياً ومن أهمهم (محمد مفتاح) و(محمد بنيس) و(سعيد يقطين) و(سيزا قاسم) و(محمد عزام) وغيرهم؛ وكتاب سعيد يقطين (انفتاح النص الروائي) عُدّ أهم وأشمل ما كتب في التناص وقد طبقه على عدة روايات منها: (الزمن الموحش) لحيدر حيدر و(عودة الطائر إلى البحر) لحليمة بركات.

ومن خلال تعريفات النقاد الغربيين والعرب للتناص يمكن القول إنه "التواجد اللغوي لنص في نص تواجداً تختلف درجاته وأهدافه ومدى القصدية في إيراده من نص لآخر بحيث يكون الاستشهاد المثبت بين مزدوجتين أوضح مثال عليه"[29] لكنه يرد كثيراً على شكل "اقتباسات وإحالات وأصداء من اللغات الثقافية مجهولة الاسم، لا يمكن ردها إلى أصحابها"[30].

مصادر التناص:

يمنح التناص القارئ وقفة تأملية بين دلالتين مختلفتين تتحدان معاً في نص واحد جديد مثيرة دلالات أخرى جديدة تحمل أكثر من بصمة واكثرمن بعد.

وتحديد مواطن التناص في نص ما يعتمد على معرفة المتلقي ومدى اتساع ثقافته فالمعرفة ركيزة تأويل النص من قبل المتلقي وهذا الأمر مشترك بين التضمين التناص[31].

وقد تعددت مصادر التناص وتباينت ويمكن حصرها في الآتي:

1- المصدر الديني

وهو اتكاء على الدين واستلهام لمعانيه سواء الدين الإسلامي أم غيره من الديانات وهذا تشابه وتقاطع كبير مع التضمين الذي يكون فيه الأخذ من القرآن بالدرجة الأولى، ومن قبيل هذا ما قاله: حسان العريش يستحضر (الإسراء والمعراج).

سبحان من أسرى بقلبي صوب جامعها الكبير ليستجم بنوره القلب[32].

هذي حماة شهامة ومروءة.

وقد اتكاء على قوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[33].

وتراكيب القرآن الكريم تثير في نفس المتلقي قدرة إيحائية خاصة تساهم في إيصال مضمون الأبيات الشعرية.

2- التناص الأدبي:

وهو تداخل نصوص أدبية مختارة قديمة أو حديثة شعراً أو نثراً مع نص القصيدة الأصلي بحيث تكون منسجمة وموظفة ودالة قدر الإمكان على الفكرة التي يطرحها الشاعر[34]، وقد يكون التناص مع الأدب العربي شعراً أو نثراً أو مع الأدب العالمي ومن التناص مع الأدب العربي يقول الشاعر محمود درويش **باطلُ باطلُ الأباطيل... باطلُ.**

كل شئ على البسيطة زائلُ[35]

فهو يلوذ بإيمانه وبالحكمة خلف بيت لبيد ليواسى نفسه رغم تماسكه أمام الموت مردداً خلف لبيد بيته موصلاً هذه الحقيقة التي استشعرها بعمق للآخرين بقول لبيد.

إلا كل شيء ماخلا الله باطلُ

وكل نعيم لا محالة زائلُ[36]

3- التناص الأسطوري:

وهو استحضار الأساطير القديمة وتوظيفها في سياقات القصيدة لتعميق رؤى معاصرة يراها الشاعر في القضية التي يطرحها[37] أو الكاتب.

ومن الأساطير الشرقية القديمة والأساطير الإغريقية ولعل أهم الأساطير المكتنزة بالمعاني والإيحاء هي أسطورة جلجامش، والعنقاء، وعشتار، وطائر الفنيق ونحوها.

ومن استلهام أسطورة طائر الفنيق ما قاله محمود درويش.

سأصير يوماً طائراً.

وأسل من عدمي

وجودي كلما احترق الجناحان

اقتربت من الحقيقة وانبعثت من الرماد[38].

4- التناص التاريخي:

وهو اتكاء على الأحداث التاريخية واستحضارها حتى يتم إغناء النصوص بدلالات جديدة قادرة على خلق معاني مكتنزة بالإيحاءات وقد يكون التاريخ عربياً أو إنسانياً ومن استلهام التاريخ استحضار شخصية الطاغية (نيرون) ليؤكد إن الاستعمار يعود من جديد ليطفيء اللهب في الشعوب بناره الكاوية فيقول حسان عريش[39].

أو كلها ثارت على البلوي شعوب العرب أطفأ ثأرها بيرون

من ظن الشعب في جيب الخليفة والقضية بعثرة مجنون

وهكذا نجد النصوص تستلهم التاريخ لإعطاء دلالات جديدة وأحياناً للتعريف بواقع يصعب وصفه إلا عن طريق استحضار التاريخ واستلهامه لأن أحداث التاريخ تعيش في ذاكرة الناس.

5- التراث الشعبي[40]**:**

يعد أهم مصادر التناص لأن الحكايات الشعبية تعيش داخل الناس وتمثل حياتهم بكل تفاصيلها من قبيل ذلك استلهام قصص شهرزاد وحكايات ألف ليلة وليلة.

لا تسألني في السياسة أنني رجل جبان.

ما همني في المسرح العربي إن مثلت دور القرد أو دور الحصان.

إنني ورثت من العروبة شهرزاد وألف أغنية.

وكيف تزوجت إنس وجان[41].

6- التصوف:

توجه الشعر العربي المعاصر إلى التصوف هربا من واقع مادي واجتماعي ففي قصيدة البياتي (عذاب الحلاج) يستلهم قول الحلاج المشهور (يا من أسكرني بحبه وحيرني في ميادين قربه)[42].

يقول:

يا مسكري بحبه

محيري في قربه

يا مغلق الأبواب[43]

والبياتي هنا يتخذ من شخصيته الحلاج قناعا يتحدث من خلاله عما يريد أن يعبر عنه من واقع مؤلم يغلق الأبواب في وجه الفكر ويصادر الحرية.

وهذا يؤكد إن التناص مع كل تلك المصادر الثقافية عند الشعراء المعاصرين عامة والكتاب يهدف إلى تفجير كل الطاقات الكاتمة في تلك المصادر وتوظيفها لخدمة النصوص وبهذا فأن الوظيفة التي يؤديها التناص تهدف إلى أغناء النصوص بالإيحاءات والدلالات وتقريبها من ذهن المتلقي وخلق علاقة حوار داخل النصوص على مر الزمن وهذا يدل على شمولية التناص والتي التضمين في الشعر العربي جزءا كبير منها وذلك عند استحضار النصوص الأدبية والقرآنية ونحوها وهذا يؤكد التشابه بين التضمين والتناص.

أنواع التناص الاقتباسي:

1- النوع الأول: التناص الاقتباسي الكامل منصص.

وهو أن يعمد الشاعر إلى نص مستقل متكامل بذاته سواء أكان بيتا أم أبياتا أم جملة نثرية كاملة فيقطعه من سياقه السابق ويضعه في نصه اللاحق بدون تغيير في بنيته الأصلية بزيادة أو نقصان أو تقديم وتأخير سواء وضعه ضمن علامتي تنصيص أم لا.

ومن هذا النوع قول البياتي[44] في قصيدته (الباب المضاء)

والذئاب تسطو على من لا كلاب له.

وسافكوا الدماء يقامرون بما يتبقى من رصيد.

"لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى" "حتى تراق على جوانبه الدماء"

وكما هو معلوم إن البيت الأخير للمتنبي[45]، وقد أراد به أن يقول إن صون الأعراض لا يتم إلا بالتضحية وإراقة الدماء وكذلك البياتي أراد ذات المعنى فالحقوق لا تصان إلا بالدفاع عنها وبذل الغالي من الأرواح.

وهذا يذكرني بما جاء في العمدة من ذات النوع وقد عده ابن رشيق من أجود التضمين وأورد له بيتاً منصصاً وهو قول أحد الشعراء

ياسائلي عن خالد عهدي به رطب الجنان وكفه كالجلمد

كـــالاقحوان غـــداة غـــبّ ســـمائه جفـــت أعاليـــه وأســـفله نـــدى

فكما هو معلوم فإن البيت الثاني بنصه كاملاً هو للنابغة الذبياني[46] ووصف الثغر يقول:

تجلـــو بقـــادمي حمامـــة أيكـــة بـــرد أســـف لثاثـــه بالأثمـــد

كالاقحوان غـــداة غـــبّ ســـمائه جفـــت أعاليـــه وأســـفله نـــدى

فكلا الشاهدين سواء في التناص أم التضمين يشبه أحدهما الآخر من حيث التدليل على الذي سيقا لأجله أو من حيث الحاجة لوجودهما.

وهذا يؤكد التشابه الكبير بين كلا الفنين.

ثانياً- التناص الاقتباسي الكامل المحور:

وهو يعرف بنفس التعريف السابق مع فارق بسيط وهو أن هذا النوع يغير من بنيته الأصلية فيزاد فيه أو ينقص أو يؤخر ويقدم سواء أكان هذا التغيير أو التحوير بسيطاً أم معقداً.

ومن هذا النوع أيضاً قول البياتي[47] في قصيدة (النبوءة)

تأكل الحرة ثدييها.

إذا جاعت وفي أرض الملوك الفقراء زهرة الدفلي على جدول ماء.

تتعرى في حياء.

وهو يضمن بيته مثلاً معروفا وهو قولهم:

"تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها".

وأميل إلى القول إن هذا النوع يقترب من التضمين المعكوس الذي أورد له ابن رشيق[48] أمثلة في قوله: "ومنهم من يقلب البيت فيضمنه معكوساً نحو قول العباس بين الوليد بن عبد الملك بن مروان لمسلمة بن عبد الملك:

لقـــد أنكرتنـــي إنكـــار خـــوف يضم حشاك عن شـــتمي وذحلـــي

كقول المرء عمرو فـــي القـــوافي لقيس حـــين خـــالف كـــل عـــذل

عذيرك مـــن خليلـــك مـــن مـــراد أريـــد حياتـــه ويريـــد قتلـــي

والبيت مضمن لبيت عمرو بن معدي كرب الزبيدي بقوله لابن أخته قيس بن زهير بن هبيرة بن مكشح المرادي وكان بينهما بعد شديد وعداوة عظيمة وحقيقته في عمرو.

أريـــد حياتـــه ويريـــد قتلـــي عـــذيرك مـــن خليلـــك مـــن مـــراد

ومثل هذا كثير في الأدب العربي لاسيما (الشعر).

النوع الثالث: التناص الاقتباسي الإشاري:

وهو أن يعمد الشاعر إلى نص نثري فيقتطع منه عبارات أو جملاً أو تراكيب جزئية غير مكتملة ويقتطعه في نصه اللاحق نحو قول البياتي في قصيدته (محنة أبي العلاء).

بكى أبو العلاء وهو يراني ميتاً حيا وحياً ميتاً في ساعة الميلاد

وهو إشارة إلى بيت أبي العلا المعري:

إن حزناً فـــي ســـاعة المـــوت أضعاف سرور في ساعة المـــيلاد[49]

ويورد ابن رشيق في باب التضمين ما بشبه هذا إذ يقول "ومن التضمين ما يحيل الشاعر فيه إحالة ويشير به إشارة فيأتي كأنه نظم الأخبار أو شبيه به... وذلك نحو قول أبي تمام.

لعمرو مع الرمضاء والنار تلتظـــي أرق وأخفّ منك في ساعة الكـــرب

أراد البيت المضروب به المثل:

المستجير بعمـــرو عنـــد كربتـــه كالمستجير مـــن الرمـــضاء بالنـــار

وفي ظني أن التناص الاقتباسي هو كالتضمين بل هو التضمين نفسه استناداً إلى ما أشرت إليه من أبيات في كلا الفنين وهذه الأنواع من التناص تتدرج عند بعضهم تحت عنوان التناص التركيبي بوصفه واحداً من أنواع التناص[50].

أهم ما توصلت إليه من خلال هذا البحث:

1- إمكانية صياغة تعريف جامع للتضمين وهو : أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من بيت أو من آية أو معنا مجردا من كلام أو مثلاً سائداً أو جملة مفيدة أو فقرة من حكمة مع التنبيه له إن لم يكن مشهورا عند البلغاء وهذا يدل على مدى التشابه بين التضمين. والتناص الاقتباسي على وجه الخصوص مع الإشارة إلى إن التناص لا يحتوي على تنبيه يبدل على وجوده.

2- صعوبة صياغة تعريف جامع للتناص لاختلاف النقاد حوله ومع ذلك يمكن القول بأنه عملية هضم وتمثيل وامتصاص وإعادة إخراج .

3- أن التناص مصطلح عرف بمعناه في الأدب العربي القديم وعاد من جديد للظهور في الأدب العربي الحديث قادماً من النقد الغربي الذي أخذه من الدرس اللساني.

4- أن هذا المصطلح الجديد كان بمثابة رد على (البنيوية) التي فرضت قيود صارمة على دراسة النص الأدبي حين درسته بعيدا على أي مؤثرات خارجية انطلاقا من رفضها لكل اثر يشير إلى المبدع وآرائه.

5- أن الظهور الحقيقي لهذا المصطلح كان على يد جوليا كرستيفا سنة 1966 في النقد الغربي.

أما استعماله في النقد العربي كان على يد سيزا قاسم سنة 1982 في مقالها (المفارقة في القص العربي) ثم توسع الاهتمام بهذا المصطلح وتتبعه ولعل دراسة سعيد بقطبين في كتابه (انفتاح النص الروائي) وهي اشمل دراسة وكذلك دراسات كل من محمد مفتاح. ومحمد بنيس، وغيرهم.

6- عرف الشعراء العرب المحدثين معنى التناص واستخدموه في أشعارهم قبل وصول المصطلح إلى النقد العربي ومن هؤلاء الشعراء البياتي والسياب

ونازك الملائكة، محمود درويش وغيرهم، وهذا يؤكد جذوره العربية التي حاولت أن أدلل عليها من خلال صفحات هذا البحث.

7- أن العلاقة بين التناص والتضمين تصل في اغلب الأحيان إلى حد التماثل التام لاسيما في التضمين الاقتباسي الإشاري.

8- إن كليهما يتجاوز حدود المكان والزمان فهما يمتصان نصاً آخر تسرب إليهما من عدة عصور وأزمنة مختلفة ويعتمد الكاتب في استخراجهما على المتلقي وثقافته فيكون مشاركاً في العمل الإبداعي وهذا الامتصاص أو التمثل لا يقلل من قيمة النص لأنه لا نص يولد من فراغ ولا كلام ينشأ من الصمت.

9- الأدب العربي غني وليس بحاجة إلى الاعتماد على نظريات الغرب ومصلحاته الأدبية إلا بالقدر الذي يسمح به التلاحم والتفاعل بين الآداب العالمية والاحتكاك الثقافي لأننا امة لها أدبها الخاص بها والتابع من تراثنا وحضارتنا وتاريخنا بوصفنا أمةً عريقة لها هويتها المستقلة وليست بحاجة إلى التبعية أو الاستيراد من آداب الآخرين.

الهوامش:

1) لسان العرب لابن منظور، ج9، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى، 2000، ص64.
2) أساس البلاغة، للزمخشري، مطبعة دار الفكر بيروت، الطبعة الثانية، 2000، ص 379.
3) القاموس المحيط، للفيروزآبادي، ج 4، تحقيق مجدي فتحي السيد، المكتبة التوفيقة، ص275.
4) مختار الصحاح، للشيخ الرازي،... دار المعارف، ص 384.
5) العمدة، ابن رشيق، عن تصحيح الشيخ مهد بدر الدين الجليلي، دار النهضة، الطبعة الأولى، الجزء 2، 1907، ص69.

6) المثل السائر، ابن الأثير، ج3، قدمه وحققه أحدة الحوض وبدوي طيانة، مكتبة النهضة، الطبعة الأولى، 1962، مطبعة الرسطة، ص200.
7) ملاحظة هامش تحرير التحبير، تقديم وتحقيق حفني حقي شرف، القاهرة، 1990، ص140.
8) مواد البيان، لعلي خلف الكاتب، تحقق حسين عبد اللطف، منشورات الفاتح، طبعة، سنة 1982، ص 353.
9) الإيضاح، للقزويني، شرح وتعليق مجمد عبد المنعم خفاجي، منشورات دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، 1971م، ص580.
10) جواهر البلاغة، السيد أحمد الهاشمي، تدقيق وفهرسة حسن نجار محمد، مكتبة الأدب القاهرة، الطبعة الثانية، ص337.
11) المصدر نفسه، ص334.
12) نظرية الأدب، شفيق يوسف البقاعي، منشورات جامعة 7 أبريل، الطبعة الأولى، 1425، ص578.
13) المرجع نفسه، ص22.
14) مجلة الموقف الأدبي، شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، العدد 430، 2077.
15) المثل السائر، ج3، ص200.
16) الإيضاح للقزويني، ج1، ص580.
17) المثل السائر، ج3، ص200.
18) المصدر نفسه، ج 1، ص173.
19) سورة يوسف، الآية 25-26.
20) لسانيات الاختلاف، ج1، ص 316.
21) التكوير، الآية 8-9.
22) ابن الإصبع المصري، ص 142.
23) المثل السائر، ج3، ص201-202.
24) الديوان، ص18.
25) ديوان أبي نواس، خمريات أبي نواس، قدم له وشرحه علي نجيب عطوى، منشورات دار مكتبة الهلال بيروت، الطبعة الأولى، 1987، ص306.

26) ديوان الأعشى، دار بيروت للطباعة، سنة الطبع 1980، ص144.
27) مادة نصص لسان العرب، لابن منظور، طبعة محققة، دار صادر، ج14، ص271.
28) نفسه ج1، الطبعة الأولى، 2000.
29) مدخل لجامع النص، جرار جانبيت، ترجمة عبد الرحمن أيوب تويقال، 1985، ص90.
30) درس السيميولوجيا، رولان بارت، ترجمة عبدالسلام بنعيد العالي توبقال، 1986، ص62.
31) تحليل الخطاب الشعري، محمد مفتاح، ص123.
32) ديوان عائلة الريحان ،حسان عريش، مطبعة دار عكرمة دمشق 2002، ص45.
33) الإسراء، الآية (1).
34) أحمد الزغبي، التناص نظرياً وتطبيقياً ،مؤسسة عمون للنشر والتوزيع ،الأردن، ط2، 2000، ص50.
35) جدارية، محمود درويش رياض، الريس للكتب والنشر، بيروت، ط2، 2001، ص87.
36) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، ج1، دار الحديث القاهرة، 2006، ص271.
37) التناص نظرياً وتطبيقياً، أحمد الزعي، ص117.
38) جدراية، محمود درويش، ص12.
39) ديوان عائلة الريحان، حسان عريش، ص17.
40) التناص بين النظرية والتطبيق ، شعر البياني اثمودجا أحمد طعمة، مطبوعة وزارة الثقافة، الهيئة السورية للكتاب، 2007، ص22.
41) ديوان اعتراف، ص103.
42) اختار الحلاج، ما سنون لويس وكراوس .بول مكتبة لاروز ومطبعة القلم باريس الطبعة الأولى، 1936، ص17.
43) ديوان السبياني، ج2، ص43.
44) ديوان البياتي، المجلد الأول، مطبعة دار العودة، بيروت، الطبعة الأولى، 1976، ص .
45) شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، ج4، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، ص252.

46) ديوان النابغة الدبياني، شرح وتحقيق كريم البستاني، دار الطباعة للنشر، بيروت، 1963، ص40.

47) الديوان، المجلد الثاني، ص .

48) ينظر: العمدة بتصرف، ج2، ص70.

49) ديوان سقط الزند، تحت عنوان ضجعة الموت رقدة، مطبعة دار صادر، بيروت، 1965، ص .

50) لسانيات الاختلاف، محمد فكري الجزار، مطبعة التراث مصر الجديدة، 2001، ج1، ص315-317.